المبحث الأول

المكان واللغة الشعرية

اللغة هي أهم مقومات البناء الفني للنص الشعري إن أحسن الشاعر استخدامها فهي ((مجموعة من الرموز يتعارف عليها المجتمع فلا قيمة للأصوات والكلمات والصيغ ما لم تعد رموزا معينة يستعين بها المجتمع على تلبية حاجاته)) (١) وتبقى هذه الرموز والألفاظ بحاجة إلى تركيب، لأن ((تركيب الألفاظ واستعمالها في سياق التعبير الأدبي خاصة فنية حيث إن القيمة الذاتية للفظ تكتسب أهميتها من خلال اتساقها وتلاؤمها مع سائر الألفاظ فتكسب الكلام نغما تهش له النفوس)) (٢).

إن اللفظ والأسلوب والصياغة المألوفة التي يلجأ إليها الشاعر تعمل مجتمعة كلها على خلق لغة شعرية (٣). ومن دونها لا يمكن للشاعر أن ينجح في التعبير عن عواطفه وأحاسيسه وتصوير آرائه وأفكاره بصورة معبرة ومنسجمة مع البناء العام للقصيدة.

أما عن اللغة وعلاقتها بالمكان فهي ((الوسط الذي يستيقظ فيه المكان من غفوته الأبدية، ليتحدد ويتمفصل ويحتاز إلى كينونته ووجوده الفني)) (٤) حيث يمكن القول إن الشاعر الأندلسي استطاع أن يوظف ألفاظا مكانية لها دلالاتها في النص الشعري وأن لغة الشاعر الأندلسي قد أصابها تطور كبير بعد أن تطورت بهم الحياة، فلغة الشاعر نابعة من ثقافته، لذلك نجدها تتفاوت بين شاعر وآخر، وتبقى قيمة هذه

---

(١) اللغة والأدب والنقد رؤية تاريخية ورؤية فنية، د. محمد أحمد العربي، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، ط١، (د.ت)، ٩١.

(٢) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، ودار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م، ١٧٧.

(٣) اللغة الشعرية هي خروج أو انزياح عن قواعد النظام اللغوي المستخدم في الحياة اليومية، ينظر: جماليات المكان، اعتدال عثمان، ٥١؛ وينظر: اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، د. منصور عبد الرحمن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٧م، ٢٦.

(٤) شعرية المكان في الرواية الجديدة، ٧٨.

الألفاظ متأتية من خلال الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يضفيها الشاعر عليها [١].

والألفاظ المكانية في الشعر الأندلسي الموحية بدلالاتها الفنية كثيرة جدا، وسنقتصر في هذه الدراسة على جزء منها، ومثال ذلك قول حسانة التميمية في وصف رحلتها إلى عبد الرحمن الأوسط:

(الطويل)

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي ... على شحط تصلى بنار الهواجر
فإني وأيتامي بقبضة كفه ... كذي ريش أضحى في مخالب كاسر
جدير لمثلي أن يقال مروعة ... لموت أبي العاص الذي كان ناصري
[٢]

فهي توظف ألفاظا شعرية تعكس لنا قساوة رحلتها المتأتية من قساوة المكان ووحشته، ومن هذه الألفاظ (سارت ركائبي، سخط، نصلى بنار الهواجر) كما وظفت الشاعرة هذه الألفاظ، لتناسب المكان الصحراوي، في الوقت نفسه، لتناسب الممدوح من حيث الألفاظ الرصينة الفخمة كما لا يخفى أن الشاعرة قد استمدت ألفاظها من الموروث الشعري القديم، فهي ألفاظ كثيرا ما تناولها الشعراء من قبل و هذا ليس بالشيء السيئ ((فمن الطبيعي أن يبدأ الشاعر حيث انتهى أسلافه و هو يتأثر بهم ويستفيد منهم ولكنه يطور ويعمق وبالتالي تبرز عبقريته الخاصة)) [٣].

إن اللغة الشعرية تحمل دلالات مكانية بل وتمثل بنية مكانية أو تنقل جزء مكانيا له معنى خاص[٤] واستطاع الشاعر الأندلسي أن يوظف هذه اللغة وفقا للأسلوب الفني الصحيح وهذا ما نلمس آثاره في قول ابن هانئ:

---

(١) ينظر: الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، إليزابيث درو، ترجمة: محمد إبراهيم الشوش، مؤسسة فرنكين للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، ١٩٦١م، ٨٩.
(٢) نفح الطيب، ١٦٨/٤.
(٣) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهايات القرن الثالث الهجري، ١٠١؛ وينظر: دير الملاك، محسن أطيمش، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢م، ٢٢٢.
(٤) ينظر: التفسير النفسي للأدب، ٥٥.

(الكامل)

أحبب بتياك القباب قبابا لا بالحداه ولا الركاب ركابا
فيها قلوب العاشقين تخالها عنما بأيدي البيض، والعنابا [1]

حيث وظف الشاعر لفظة (القباب) كمكان للحب وذكرى الحبيبة وألفته، لذلك المكان، نابع من حبه لساكنيه حيث قلوب العاشقين، ولا يألف الإبل وحادييها، لأنها سبب بعد الأحباب عنه، هذا التركيب الشعري من خلال اللفظة المكانية جاء مختلفا تماما عما اعتدنا عليه في الشعر القديم و هو توظيف لفظة (الأطلال) كمكان للحب وذكريات الحبيبة، إذا أسلوب شعري جديد وظفه الشاعر من خلال هذه اللفظة (القباب) انعكست فيها معالم الحياة الحضرية وعيشته في تلك القصور والقباب.
وكثيرا ما قرن ابن هانئ هذه اللفظة (القباب) بذكر الأحباب وأصبح الحديث عنها بدلا من الأطلال حيث يقول:

(الطويل)

قباب وأحباب وجلهمة العدى وخيل عراب فوقهن أعاريب [2]

ويوظف ابن هانئ (القباب) مرة أخرى ولكن ليس للأحباب وإنما للسادة والأشراف حيث يقول:

(الكامل)

تغدو القصور البيض في جنباته صورا إليه يكل عنه عيانها
والقبة البيضاء طائرة به تهوي بمنخرق الصبا أعنانها [3]

(١) ديوان ابن هانئ، ١٩٨، الحداة: سائقي الإبل، العتم: شجرة حجازية.
(٢) ديوان ابن هانئ، ٢١.
(٣) المصدر نفسه، ٢٩٧.

فوظف (القباب) للمكان الرفيع الذي يسكنه السادة والأشراف وحاول أن يجسد من خلال هذا المكان كل معاني العز والشرف وبأسلوب شعري مبتعدا عن التكلف والأغراب.

ومن الألفاظ المكانية التي وظفها الشاعر الأندلسي بدلالات مختلفة هي لفظة (الدار) حيث أنزلها ابن عبد ربه منزلة الدنيا حين قال:

(الطويل)

ألا إنما الدنيا نضارة أيكة إذا أخفر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع عليها ولا اللذات إلا مصائب [1]

حيث شكلت لفظة (الدار) وبدلالة واضحة لتحل محل الدنيا وتناسبت هذه الألفاظ والأسلوب الذي لجأ إليه مع ثقافته الدينية التي نلمس آثارها ونتتبع خطاها في هذه الأبيات.

وشكلت لفظة (الدار) في شعر الرمادي دلالة أخرى فقد أحلها محل البلد الأم حيث قال:

(الطويل)

أحن إلى البرق اليماني صبابة لأني يماني الدار وهو يماني [2]

أما ابن شهيد فقد شكلت هذه اللفظة لديه دلالات مكانية مختلفة منها دلالتها على السجن من خلال قوله:

(الطويل)

فمن مبلغ الفتيان أني بعدهم مقيم بدار الظالمين طريد

(١) ديوان ابن عبد ربه، ٢١-٢٢.
(٢) ديوان الرمادي، ١٢٧.

مقـيم بـدار سـاكنوها مـن الأذى قيـام علـى جمـر الحمـام قعـود [1]

فقد وظف الشاعر (الدار) محاولا إعطاءها صفة المواطنة بعد أن عاش في ذاك المكان، وهذا الانسجام الروحي والشعوري بين الشاعر والمكان جاء من طول مكوث الشاعر فيه.

وفي رثائه لقرطبة تبرز لفظة (الدار) بكثافة عالية فجعل منها داره الصغير والكبير وكل شيء في حياته حين قال:

(الكامل)

دار أقـال الله عثـرة أهلهـا فتبربـروا وتغربـوا وتمصـروا
والـدار قـد ضـرب الكمـال رواقـه فيهـا وبـاع الـنقص فيهـا يقصـر
أسـفي علـى دار عهـدت ربوعهـا وظباؤهـا بفنائهـا تتبختـر [2]

فوظف هذه اللفظة لقرطبة، لإعطائها صفة من صفات المواطنة والألفة لتلك المدينة، فضلا عن ذلك فإن الأبيات كانت على درجة عالية من الجودة والإتقان في الأسلوب ووضوح المعاني مما أضفت على الأبيات سمة التجدد والانفتاح والبعد عن الابتذال.

ومن الممكن إعطاء هذا المخطط لاستعمال هذه اللفظة (الدار) وما حملته من دلالات مختلفة لدى الشاعر الأندلسي وكما هو مبين:

(١) ديوان ابن شهيد، ١٠٠.
(٢) المصدر نفسه، ١١٠.

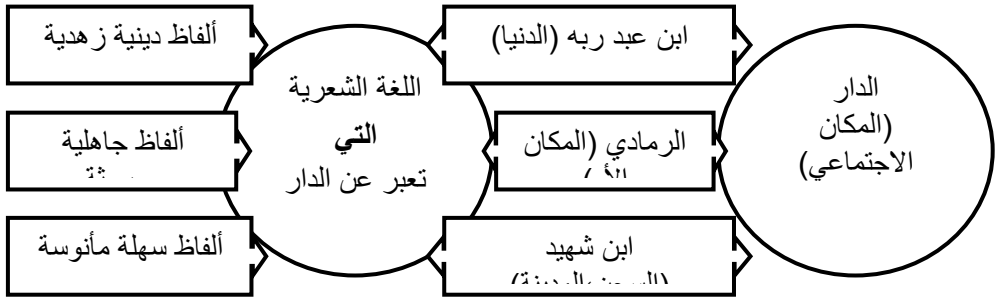

وعن لغة الموروث الشعري والتي عدها البعض أنها ((خلفية هامة ثرية بالتجارب والخبرات والقيم والدلالات ولا يعقل تطور أي من الفنون من دون أن تكون وراءه خلفيات الموروث ودلالته)) [١] نجد صداها في قول الشاعر الأندلسي إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي: (طويل)

خليلي هل ليلى ونجد كعهدنا ... فيا حبذا ليلى ويا حبذا نجد
عسى الدهر أن يقضي لنا بالتفاتة ... فيا رب قرب يجدده بعد [٢]

فاللفظة المكانية الموروثة هي (نجد) وهي كثيرا ما تداولها الشعراء مقترنة بذكر الحبيب والشوق إليهما، لما تجده من دلالة نفسية معبرة عن عاطفة ملتهبة فهي رمز للمكان العربي المألوف.

وترد لفظة (نجد) مرة أخرى في قول عبد الله التميمي (ت:٤١٥هـ)[٣] حين قال:

(١) تطور الشعر العربي الحديث في العراق اتجاهات الرؤية وجماليات النسيج، د. علي عباس علوان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط١، ١٩٧٥م، ٥٩.
(٢) نفح الطيب، ٧٠/٣.
(٣) أبو محمد عبد الله بن الربيع بن عبد الله التميمي شاعر أديب سكن قرطبة توفي سنة ٤١٥ هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ٤١٣/٢؛ بغية الملتمس، ٤٤٦/٢.

(الوافر)

أقــول لصــاحبي والعــيس يحــدى بنـــا بـــين المنيفـــة والضـــمار
تمتـــع مـــن شـــميم عـــرار نجـــد فمـــا بعـــد العشـــية مـــن عـــرار[1]

فهو يصف لنا تلك الرحلة وما صاحبها من مشاهد مختلفة للمكان الصحراوي، فنباتات ذلك المكان المتسمة بطيب الرائحة، إنها أرض نجد التي ألفها الشعراء بكل ما فيها وتمتعوا بجمالها وطيب رائحتها.

أما الرسم والأطلال فقد منحها الشاعر الأندلسي بعدا فنيا أيضا وكثيرا ما ترددت في أشعارهم فهذا ابن عبد ربه يقول:

(الرجز)

مـا بـال رسـم الوصـل أضـحى داثـرا حتـــى لقـــد أذكرتنـــي ممـــا دثـــر[2]

وقول العتبي:

(الكامل)

فاســأل بهــن ربــوعهن ومــا الــذي يجــدي عليــك ســؤال ربــع داثــر
عفـــت معالمـــه الليـــالي مثـــل مـــا عفـــى ســـواد الشـــهر بهجـــة عـــامر[3]

فإننا نقف هنا أمام ألفاظ متوارثة (رسم، أضحى، داثرا) وقول العتبي (فاسأل الربوع) و(عفت الربوع) كلها ألفاظ مكانية شعرية معروفة لدى الشاعر العربي القديم، فضلا عن ذلك اقتران هذه الألفاظ بالغزل قديما وحديثا.

أما عن لغة الموروث الديني فقد كان للقرآن الكريم أثر كبير على ثقافة الشاعر

(١) بغية الملتمس، ٤٤٦/٢.
(٢) ديوان ابن عبد ربه، ٨٤.
(٣) يتيمة الدهر، ٣٤/٢.

الشعرية ينهل منه ما يتلاءم مع تجربته النفسية [١] فهذا ابن عبد ربه يقول:

(الطويل)

أمـا والـذي سـوى السـماء مكانهـا ومــن مــرج البحــرين يلتقيــان[٢]

فهنا اقتباس قرآني واضح المعالم يشير في هذا البيت إلى قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [٣] فهو قسم بالمكان المعجز الذي أوجده رب العزة فيقسم به الشاعر لعظمة مثل هذه الأمكنة وإلى هذا الاقتباس ذهب محمد بن مسعود البجاني في قوله:

(السريع)

إن كنـت أضـمرت الـذي زخرفـوا عنـــي فـــدعني للقـــدير الـــرحيم

فعنـــــده نزاعـــــة للشـــــوى وعنـــده الفـــردوس ذات النعـــيم[٤]

فاقتبس قوله تعالى: ﴿كَلا إِنَّهَا لَظَى، نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾[٥]، (نزاعة للشوى) لفظة قرآنية جاءت بدلالتها المكانية والمتمثلة بـ(جهنم) ثم جاء بلفظة (الفردوس)، لتعكس لنا صورة الجنة وما فيها من نعيم ونلمس الأثر النفسي في الأبيات لكلا اللفظين (جهنم والفردوس) فقد جسدت الأولى المكان المعادي والثانية المكان الأليف، فضلا عن ذلك المكان، فإن الأبيات تضمنت الاستعطاف وطلب الرحمة بأسلوب الحوار الشعري الذي اتضحت معالمه في هذين البيتين، وأن يترك أمره إلى الله.

ومن الألفاظ المكانية التي ضمنها الشاعر الأندلسي في أشعاره قول ابن هانئ:

(الكامل)

أقسـمت بالبيـت العتيـق ومـا حـوت بطحــاؤه مــن حجــرة وجحونــة [٦]

(١) ينظر: أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، ٨ وما بعدها.
(٢) ديوان ابن عبد ربه، ١٦٦.
(٣) سورة الرحمن، ١٩.
(٤) نفح الطيب، ٣٨٩/٣.
(٥) سورة المعارج، ١٥-١٦.
(٦) ديوان ابن هانئ، ٢٩٥.

فهذه الألفاظ المكانية الدينية والمتمثلة (بالبيت العتيق، بطحاؤه، حجرة، جحونة) كثيرا ما نجده لدى الشاعر الأندلسي مترددة في أشعاره، وهي تعكس لنا ثقافة الشاعر الدينية وتأثره الكبير بالإسلام.

وإلى هذه الألفاظ المكانية الدينية ذهب ابن دراج بقوله:

(الطويل)

فواتح عزم ما لها دون زمزم ... ولا دون سعي المروتين قفول
وهل عائق عنها وكل سنينه ... إليك تسامى أو إليك تئول
سيوف على الجرد العتاق عزيزة ... وأرض إلى البيت العتيق ذلول
فقد أذنت تلك الفجاج ودمثت ... حزون لمهوى مرها وسهول
وقام بها عند (المقام) مبشر ... وشام سناها (شامة) وطفيل[1]

فنلاحظ كثافة مكانية عالية في النص حيث (زمزم، المروتين، البيت العتيق، المقام، شامة، طفيل) هذه الكثافة المكانية الدينية الغرض منها إبراز الطابع الديني للنص الشعري الذي قاله في مدح المنصور بن أبي عامر عند هزيمته لزيري، إذ نجد الألفاظ قد تناسبت مع الغرض الشعري – المديح -.

ونجد هذه الألفاظ المكانية الدينية في شعره مرة أخرى في قصيدة يهنئ بها منذر بن يحيى التجيبي بعيد الأضحى يقول:

(الكامل)

أهدي إليك سلام مكة فالصفا ... فمعالم الحرم الأقاصي فالدنا
فمواقف الحجاج من عرفاتها ... فالمنحر المشهود من شعبي منى
وخلفت سعي المروتين معاقبا ... بين الندى والبأس سعيا ما ولى[2]

(١) ديوان ابن دراج، ٨.
(٢) ديوان ابن دراج، ٢٦١.

هذا النمط من الكثافة المكانية الدينية ينم بصورة واضحة عن تأثر الشاعر بتلك الديار، وعلى الرغم من كونها لا تصل إلى المستوى الجمالي الفني العالي إلا أنها استطاعت أن تضع بصمات الموضوع وملامحه، ألا وهو المديح المتضمن بين حناياه التهنئة، فوظف هذه الألفاظ وبشكل يناسب الممدوح، وهذه عادة الشعراء في أشعارهم.

صفوة القول أن الشاعر الأندلسي قد اتسمت ألفاظه بالسهولة وجمال التعبير وقوة الأسلوب وبعده عن الوحشي والغريب وهذا مرده إلى الحياة الحضرية التي عاشها في تلك البلاد. فضلا عن ذلك فإن الشاعر الأندلسي لم يتناسق موروثه الشعري فقد نهل منه بشقيه الديني والأدبي، واستطاع ببراعة أن يلبس تلك الألفاظ ثوبا جديدا ويتألق فيها وإعطاؤها إيحاءات جديدة تعبر عن الحالة النفسية والضرورة الموضوعية للعمل الشعري.